

تأملات فى مبدأ ختم النبوة

للقاضى آفتاب حسين

(تعريب : عبدالرحيم اشرف بلوش)

قال الله تعالى فى القرآن الكريم : « ما كان محمد أباً احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٣٣ / ٤٠) . ان هذه الآية الكريمة دليل واضح وحجة بديهية على تمام الرسالة وكمال النبوة ببعثة محمد بن عبدالله كرسول الله صلى الله عليه وسلم وانغلاق باب البعثة الى الأبد لأى مرسل ، رسولا كان أو نبيا ، تشريعيا كان أو غير تشريعى . وجاء فى آية اخرى : « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (٥ / ٣) . ونظرا الى أن الاسلام دين العالم كله ولجميع الازمان ، وليس بخاص بقبيلة خاصة أو ببلدة معينة ، نستطيع أن نقول فى تفسير هذه الآية بأن الضمائر فى « لكم » « دينكم » و « عليكم » ترجع الى جميع الناس حتى القيامة ، لا الى المسلمين فقط . لأن الله تعالى قال : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (٣٤ / ٢٨) . واذا نظرنا الى اطلاق هذه الآية لايسع لنا الا أن نسلم بأن الآية « اليوم اكملت لكم دينكم » بشارة لتكميل دين الاسلام

لسائر البشرية . فكما أن الرسول هو خاتم الانبياء ، فكذلك القرآن هو خاتم الكتب الالهية والاسلام هو خاتم الاديان .

وقد أورد أخى المكرم والمحترم القاضى محمد كرم شاه نكتة جيدة فى تفسيره « ضياء القرآن » تحت قوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك » (٢ / ٤) بأنه ليس فيها ذكر الوحي أو امكان نزوله فى المستقبل ، فلو كانت النبوة جارية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان ضروريا أن ينزل بعده الوحي ولكان الايمان به ضروريا ، ولكانت هذه الآية كالاتى : وما أنزل من قبلك وما سينزل من بعدك . ولكننى أقول بهذا الصدد بأن علماء الاسلام لم يتمكنوا من تفسير هذه الآية من سورة البقرة بهذا الاسلوب وبهذا المعنى الا بعد أن اعلن القرآن أن الرسول عليه السلام هو خاتم النبيين وأن شريعته هى خاتم الشرائع ، لأن التسلسل فى نزول الوحي من آدم الى محمد صلى الله عليه وسلم كان يقتضى أن يصدق كل نبي بما جاء به الانبياء السابقون من التعاليم والشرائع .

وقد شبه خاتم النبيين نفسه باللبننة الأخيرة فى عمارة النبوة التى اكتمل بها المبنى . وفى حديث جابر رضى الله عنه أن النبوة قد انقطعت به . (صحيح مسلم - كتاب الفضائل) .

وهذه هى شهادة القرآن والسنة فى هذا الباب التى لا يمكن شهادة أقوى وأجود منها ، ولا تبقى بعدها ضرورة اتيان أية شهادة أخرى لاثبات هذه المسئلة ولكنى مع قلة علمى وقصور باعى اريد أن اقدم تفصيلا موجزا لهذا الاجمال فى ضوء القرآن والسنة .
لماذا مست الحاجة ، فى ضوء الفلسفة القرانية ، الى انتهاء

سلسلة النبوة بعد أن كانت جارية لآلاف السنين ؟ فجوابه الوجيز هو مبدأ التطور يعنى كانت مراحل تطور المجتمع البشرى تقتضى بعثة الانبياء حيناً بعد حين ، حتى وصلت البشرية فى تطورها وبلوغ عقلها الى أن أصبحت صالحة لتحمل الرسالة الالهية فى صورتها الكاملة ، فلاتبقى بعدها الا ضرورة القوانين والاحكام الدائمة أو الاصول والمبادئ الرئيسية التى يمكن بها وضع القوانين العصرية .

وتثبت مسألة تكميل الدين بوضوح بالمقارنة بين الأديان السابقه والسنة النبوية ، ويمكن فهم الفارق الزمانى بالنظر الى استعمال المعجزات والخوارق وعدم استعمالها . ان الانبياء السابقين أعطوا المعجزات للترغيب والترهيب مع التبليغ كشى لازم للنبوة ، ولذلك لما طلب اصحاب الثمود آية ، أعطوا الناقة وأعطى سيدنا يوسف عليه السلام علم تأويل الأحاديث وتعبير الروبأء ، وأعطى سيدنا موسى عليه السلام معجزة العصا واليد البيضاء لانذار فرعون وآله ، وبعثذ أنزل على قوم فرعون عذاب الجراد والقمل والضفادع والدم ، كما ورد فى الآية (١٣٣ / ٧) واستعملت معجزات عديدة لمنع بنى اسرائيل عن البغى والعصيان . وكان سيدنا عيسى عليه السلام يحيى الموتى ويبرى الاكمه والابرض ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فاذا هو طائر حى ، كما جاء فى الآية (٤٨٣) ، ومع ذلك ، طبقا للانجيل الموجودة ، لما ألقى القبض عليه أنكر حواريوه من كونهم اصحابا له أو عن معرفتهم اياه .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفرد فى كثير من الامور بين الانبياء السابقين ، مثلا فى كونه رحمة للعالمين وهو أيضا يمتاز من

اخوانه يرسل فى انه لم يستعن بالمعجزات فى الترغيب والترهيب .
 ان الكفار اعترضوا عليه مرارا وطلبوا منه الآيات والمعجزات كما جاء
 فى الآيات (١٧ / ٩٠ - ٩٣) ، فقال الله تعالى انه قادر على أن ينزل
 آية (٦ / ٣٧) وقال : « قل انما اتبع ما يوحى الى من ربي ، هذا
 بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، واذا قرى
 القرآن فاستمعوا له وانصتوا (٧ / ٢٠٣) ، وقال : « قل انما
 الغيب لله » . (١٠ / ٢٠) ، وقال : « انما أنت منذر » (١٣ / ٧)
 وقال « قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين » (٢٩ / ٥٠) ،
 « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان
 فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (٢٩ / ٥١) ، كل هذه
 الآيات الكريمة تدل على أن القرآن يكفى آية ومعجزة .

وليس هذا فحسب ، بل ذكر أيضا فى القرآن سبب عدم انزال
 الآيات على محمد عليه السلام ، فان الكفار كانوا يسمون الآيات
 بالسحر وكانوا يقتلون الانبياء وينكذبونهم مع رؤيتهم الآيات والخوارق ،
 كما ورد فى الآيات (٣ / ١٨٢ - ١٨٣) .

« ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شى
 قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون » (٦ /
 ١١١) ، « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون »
 (١٧ / ٥٩) .

انما معجزة هذه الايام هى القرآن فقط ، ودليل كونه معجزة تحديه
 للبشرية كلها فقال : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا
 بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١٧ /

(٨٨) . والمعجزة هي التي تعجز المعاندين والمنافسين ، وقد أوضح الله تعالى بقوله : « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الاكفورا » (٧٧ / ٨٩) .

ان القرآن الكريم دائما يذكر معجزات الانبياء في القصص القرآنية ، لترهيب الناس عن العذاب أو ترغيبهم الى الايمان ، ولكن الله تعالى أظهر سبب عدم اصدار المعجزات من رسوله صلى الله عليه وسلم ، بأن عصره عليه السلام عصر العقل ، وينبغي للناس أن يعرفوا الاشياء بمعيار الحسن أو القبح ، واذا أرادوا أن يعطوا آية واضحة فالقرآن آية لانظير لها ، وفيه دلائل مختلفة ، فليسلموا وليؤمنوا .

ولا يلزم من هذه الآيات القرآنية أن الله تعالى لم يشرف رسوله صلى الله عليه وسلم بالقدرة على الاتيان بالمعجزات . فان هذه الفكرة خاطئة تماما . ان الكفار كانوا يطالبون بالآيات عن حقد أنفسهم ، فكانوا يقولون أحيانا : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفتجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو تكون لك بيت من زخرف أو ترتى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه » (٧٧ / ٩٠ - ٩٣) أحيانا كانوا يطالبون بالنار الذي يأكل القربان . ولكن كانت اسئلتهم التافهة كلها تنافى المقصد الرباني العظيم ، لأنه تعالى كان يريد أن يهدى الناس بالادلة والحجج التي جاء بها القرآن الكريم ، ولان دين القرآن

دين ثابت يستمر الى يوم القيامة . فلذلك وضع أساسه على الدلائل ، ليعترف الناس بصداقته فى جميع العصور ويؤمنوا به فى كل عهد . فهذا هو السبب لعدم استعماله صلى الله عليه وسلم المعجزات للترغيب أو الترهيب ، والافكيف يمكن ان يعطى الله تعالى صلاحية الخوارق والكرامات لاتباعه صلى الله عليه وسلم ولم يعط هذه القدرة لرسوله صلى الله عليه وسلم ؟ ان الامثلة لوجود هذه القدرة له كثيرة فى الاحاديث .

وتم نكتة أخرى - وذلك أن المعجزات يمكن تكذيبها بأن يقال عنها انها سحر أو شعودة ، ولكن رد البراهين والادلة لايمكن بهذه الاقوال المبتذلة ، بل لابدلها من امرين ، اما أن يأتى المنكر بالبراهين لردّها أو يؤمن اذا لم يمكن ردّها . ولذلك أجاب القرآن عن جميع الاعتراضات الواردة من الكفار ولم ير الاخفاء فى هذه المسئلة مناسبا أو ضروريا .

وقبل أن نعرض خلاصة البراهين والدلائل فى هذا الصدد نرى من الضرورى أن نقدم شهادة القرآن الكريم عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك (٢٩ / ٤٨) ، « ولا أنا عابد ما عبدتم » (١٠٩ / ٤) ، « فانهم لا يكذبونك » (٦ / ٣٣) ، « وما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى » (٥٣ / ٢ - ٣) ، « وما بصاحبكم من جنة » (٣٤ / ٤٦) ، « .. فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » (٥٢ / ٢٩) ، والآيات (٦٨ / ٢ ، ٨١ / ٢٢) ، « وانك لعلى خلق عظيم » (٦٨ / ٤) « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » (٣٦ / ٦٩) ، فالدليل الذى

يترتب من هذه الشهادات كلها هو كون القرآن معجزة . فكيف يمكن للنبي الذي لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب شيئا أو يقرض شعرا أن يؤلف كتابا لانظير له . ثم انتم تعرفون صدقه وامانته واجتنابه عن عبادة الاوثان والمآثم الاخرى قبل البعثة أيضا ، فكيف تكذبونه ؟ وذكر الله اجمال هذا التفصيل فى هذه الآية : « قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون » ، (١٠/١٦)

يقول العلامة شبير أحمد العثماني رحمه الله فى تفسير هذه الآية ((انى أتلو عليكم ما يشاء الله ويريده ، ويخبركم بواسطتى بما يشاء ، ولو كان الله يريد خلاف ذلك فمن أين كانت لى القدرة لانشاء الكلام من عند نفسى وأنسبه اليه تعالى ؟ لقد مضت أربعون سنوات من عمرى بين ظهرانىكم وأمام اعينكم ، وحصلت لكم التجربة عن احوال نفسى فى هذه المدة الطويلة . وكنت مثلا بينكم فى الخلق والعفة والامانة وايفاء العهد . وهذا الامر مسلم و معلوم بانى أمى ولم أحضر الى اى معلم او أستاذ لأتعلم شيئا ، ثم من لم يكتب قصة ، ولم يحضر فى أى محفل الشعر ، ولم يفتح كتابا ليقرأ ، ولم يقبض قلما ليكتب ، ولم يذهب الى مدرسة ليتعلم ، لمدة اربعين سنة ، فكيف تمكن من أن ينشأ دفعة واحدة كلاما أعجز الجن والانس بفصاحته وبلاغته وبشوكته وجزالته وبأسلوبه وبسلاسته ، وذبلت أمام علومه وحقائقه جميع معارف الدنيا ، ويقدم الى البشرية قانونا كاملا ونظاما عالميا لهدايتهم ، فيصير جميع القوانين السابقة باطلا أمامه ، وينفخ فى الاجساد البالية

لاقوام المعمورة وبلاد العالم روحا جديدة ؟ هل يصدق أحد هذا الأمر ؟ فعليكم أن تتفكروا فى أن من لم يكذب على أى واحد منكم فى اربعين سنة كيف يمكن له أن يجترأ - معاذ الله بالكذب على الله والافتراء عليه فلا يمكن الا الاعتراف بأن الكلام الالهى الذى أبلغه اليكم ، ليس لى قدرة أصلا فى انشائه أو ابلاغه ، بل الله يسمعكم بلسانى مايشاء . ليس لمخلوق أن يبدل فيه نقطة واحدة)) .

هل يمكن الجواب عن هذا الدليل القرآنى بأنه كيف يصح اتهامكم النبى صلى الله عليه وسلم بالكذب ؟ وقد لبث فيكم عمرا ، ولم يكذب مرة واحدة ، وقد لقبتموه انتم بالصادق الأمين . وكيف يقول أحدكم ان الرسول كتب القرآن بيده وانتم تعلمون جيدا انه أمى . لو كان يقول الشعر لقلتم انه ينظم القرآن لقدرته على الشعر ، ولكنم تعرفون أنه ليس بشاعر ، بل هو سراج منير كما فى الآية (٣٣ / ٤٦) . وقال الله عزوجل : « هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . (٤٨ / ٢٨) ، وقال تعالى : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » (٥٣ / ٣ - ٤) ، وقال : « كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آيتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » . (١٥١ / ٢) .

وهذا الامر يدعو الى التفكير بأن المشركين ايضا كانوا ضحية التناقض الفكرى كالمستشرقين فى زماننا . انهم كانوا أحيانا يصفون القرآن بتصنيف النبى صلى الله عليه وسلم ، وأحيانا كانوا يقولون

انه يعلمه القرآن رجل آخر . فقال الله عزوجل في جوابه
 « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون
 اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (١٦ / ١٠٣) . وهذا العجمي
 لا يقدر على اللسان العربي . لقد جاء القرآن برد جميع
 الاعتراضات عن المشركين بأحسن الطريق . فأين تبقى الاهمية
 للاعتراضات الالهية ، كقولهم : ان هذا النبي ليس بملك ، انه
 يمشى فى الاسواق ، انه يأكل الطعام ، لم لم ينزل القرآن على
 رجل آخر ، لماذا لا يعيش عيش الامراء ؟ ولماذا لم يعط آيات موسى ،
 فرد القرآن على هذه الاعتراضات ردا صريحا و أوضح أن
 النبى صلى الله عليه وسلم بشر يجب اتباع سنته واسوته . ولذلك
 أمر القرآن الحكيم بطاعة الرسول مع طاعة الله فى عدة
 مواضع ، مثلا فى الآيات (٣ / ٣٢ ، ٤ / ٥٩ ، ٥ / ٩٢ ، ٨ / ١ ، ٢٠ /
 ٤٦ ، ٢٤ / ٥٤ ، ٢٧ / ٥٤ ، ٦٤ / ١٢) . فمنزلة الرسول ليس بمنصب
 الشارح لهذه الاحكام فحسب بل هو الشارع أيضا .

ان المسيحيين ، بعد رفع سيدنا المسيح عليه السلام ، أقاموا
 بنيانا لمذهب باطل بعد أن تأثروا من اسرار وخرافات الفلسفة اليونانية ،
 ففسروا وحدانية الله بالتثليث ، وسموا التثليث بالوحدانية . وحكموا
 على آدم الذى خلق بدون اب وأم بالآثم الاول وجعلوا من خلق من
 امه بدون أب ابنا لله تعالى (وقدرد عليهم بالبراهين) . ولذلك
 كان ضروريا أن يكون الدين النهائى بصورة يمكن ثبوته بعبارة
 العقل ويكون التبليغ فيه على اساس الدلائل والحجج حتى وأثبت
 فيه وجود البارى تعالى بالدلائل .

ان الامر باتباع أسوة الرسول يقتضى أن يقوم أتباعه عليه السلام بكل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو وضع النبي عليه السلام أساس تبليغ الدين على المعجزات التي لا يقدر عليها عامة المسلمين من بعده لم تعد اسوته سالحة للعمل بها بجميع الوجوه . ان التقليد يمكن فى عمل وأمر يحصل للمقلد القدرة عليه .

ان سلسلة الدلائل فى القرآن الكريم واسعة جدا ، حتى وردت الأدلة والبراهين للقوانين الالهية . فمثلا ان القوانين كانت فى صورة الأوامر فى « العهد القديم » ، لا تقتلوا - لا تزناوا - لا تسرقوا - لا تفتروا الكذب على أحد ، ولا تتمنوا لشئى فى ملك أحد ، من البيت والزوجة والانعام والحمير وغير ذلك . ثم تلتها قوانين أخرى بشكل يذكر العقوبات فقط ، مثلا القصاص ، الضمان ، التعريب والقتل والرجم وغير ذلك من العقوبات . وأما القرآن الكريم فعلى العكس من ذلك يلقى الضوء فى عدة مواضع على قبح الاثم وحسن البر ، ليميز الناس بين الحسنه والسئيه بانفسهم فيلقى الضوء مثلا على فوائد القصاص مع بيان حكمه ، «ولكم فى القصاص حياة يا اولى الالباب لعلكم تتقون » (٢ / ١٧٩) . ولما منع من الزنا أنذر من سببه أيضا فقال : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلاء » (١٧ / ٣٢) . وعبر السرقة بالظلم بعد أن ذكر عقوبتها ليتضح فسادها ، فقال : « فمن تاب من بعد ظلمه . . . » (٥ / ٣٩) . وقال فى القذف بأنه يؤذى الناس بغير ما اكتسبوا ، كما فى الآية (٣٣ / ٥٨) . وقد استحث عقول الناس وضمائرهم فى مسألة شرب الخمر والقمار وقال : «يسئلونك

عن الخمر والميسر، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس، واثمهما أكبر من نفعهما»، (٢١٩/٢)، وقال: «انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون»، (٩١/٥).

وقد ورد في العهد القديم ذكر كثير القوانين بشئى من البسط والتفصيل. واما القرآن الكريم فاكتفى بذكر بعض الحدود واحترز عن التفاصيل. وهذا أمر مسلم ان المجتمع يكون دائما فى حالة التغير، ولوضعه على نمط صحيح تختلف اهمية القوانين حسب الاولوية والاسبقية والمسبوقية - وتمس الحاجة الى القوانين الجديدة لحل مشاكل متجددة - ولا يمكن ايفاء الضرورات المتغيرة والمتطلبات المتجددة وتحقيق المصالح الجديدة الا بوضع القوانين والقواعد الجديدة.

وذكر تفاصيل الجزئيات القانونية فى العهد القديم ان دل على شئ فانما يدل على أن هذه القوانين لم تكن دائمية بل وضعت لوقت خاص حتى يجئى نبي آخر بشريعة جديدة ويتم تعديل وتنسيخ القوانين الالهية حسب ضرورات الوقت وحاجات العصر.

ان عدم ذكر هذه الجزئيات فى القرآن الكريم وذكر الكليات والاصول فقط دليل بديهى على انه قد جاء عصر العقل والحضارة ليقوم الناس بأمورهم ويضعوا لهم الانظمة التفصيلية حسب تغييرات المجتمع فى ضوء الاصول الدائمة والمبادئ الشرعية الثابتة. ولقد انتهى العصر القديم والبدائى المختلف لما كانت الانسانية فى حاجة الى الأوامر التفصيلية والاحكام الجزئية. واما الآن فدخلت البشرية

فى زمان متحضر تحتاج الى الاصول المرشدة اكثر من احتياجها الى الاحكام التفصيلية الحتمية . ان الدور الكبير للعلم والفضل قادم انشاء الله حينما يقدر الانسان على تسخير الكون . واعطاء الجزئيات لهذا الانسان لايبنى الاعدم الثقة فى صلاحيته واهليته للقيام باموره التفصيلية فى ضوء المبادئ الاسلامية الابدية .

ومثال هذا العصر والعصور القديمة كالرجل الشاب وأيام طفولته، فانه كان يحتاج فى أيام طفولته الى الاهتمام والعناية التامة من أبويه، وكان ضروريا أن يؤدبها ويراقبها على جميع حركاته وافعاله لأن لا يضل ، ولكنه اذا استقام واستقل فى اموره بعد أن يدخل فى شبابه فانه لا يحتاج اذا الى هذا النوع من العناية ، بل يصبح هو بنفسه صالحا أن يعيش فى حياته بالتقوى فى ضوء الاصول والمبادئ التى رسمها على قلبه ابواه واكابرهم باهتمامهم وعنايتهم الخاصة عليه فى سنوات طفولته وأيام صباه . فكذلك نستطيع أن نقول ان الكتب الدينية القديمة كانت لهداية الانسانية فى ايام طفولتها وعصور صباها وأنزلت لهدايتنا حتى أن تكون شابة . وأما المبادئ والاحكام التى اعطاها القرآن فانها لهداية الانسانية البالغة الشابة العاقلة . فكما لا يحتاج الانسان البالغ الى مزيد من الهداية والارشاد على كل خطوة يخطوها ، فكذلك لا يحتاج الآن الانسانية البالغة الى مثل هذه التفاصيل - وتكفيها الاصول المرشدة فى حياتها . فبوجود هذه الاصول والاحكام الدائمة لاجابة الى شريعة جديدة . والى هذا المعنى يشير قول الله عزوجل : « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » .

لم يكن تعليم وحادانية الله قائما على أساس أى دليل فى الاديان السابقة ، ولكن لما وصلت البشرية الى كمالها فكرا وفهما وعقلا وعلما ، بعد أن مرت من عدة مراحل ، واصبحت قادرة على ادراك وجوده تعالى لا بالاسرار بل بالدليل والبرهان ، بعث الله عزوجل بالادلة والبراهين لثبوت وحدانيته عزوجل . أنا اذكر هنا للمثال فى هذا الصدد ديانتيين فقط : ان ثبوت وجود يهواه وذكره فى العهد القديم لا يعدو على كونه قد انجى الاسرائيليين من ايدي المصريين وملكهم على بلد آخر بعد أن جعلهم ملة واحدة .

وكانت لمعجزات المسيح عيسى ابن مريم دورا عظيما فى عصره وتشتمل فيها ولادته التى كانت ايضا معجزة ، ولكن كان لسرية الوثنية اليونانية دخل كبير فى اختراع المذهب الذى لفق باسمه بعد أن رفع الى السماء . انه يثبت حتى من الاناجيل الموجودة أن عيسى عليه السلام ادعى بكونه رسولا وابنا لبنت آدم ، أما كلمة « ابن الله » فانه استعمل عدة مرات فى العهد القديم لعدد كبير من الانبياء ، وهذه الكلمة لاتنافى النبوة ، ولانجد فى الاناجيل كذلك مايدعونه من معاصيه اثناء حياته الدنيوية ولا ذكر الصليب ومحياه بعده ، ماعدا بعض الاشارات . ولكن اقيم أساس المسيحية بعد رفعه عليه السلام على اصول ومبادئ لم تكن لها صلة بتعاليمه قط . وقد أسس هذا المذهب الجديد القديس بولس الذى لم يكن عالما لكتب اليهود فحسب بل كان ماهرا فى الفلسفة والوثنية والاساطير اليونانية ، وكانت له قدرة على علوم الروما لكونه روميا ، فلذلك أسس بنيان النصرانية على السرية اليونانية .

انما كان دعوى سيدنا عيسى عليه السلام المحافظة على
الشرع القديم الا ما كان محتاجا الى التعديل ، فقال عليه السلام .. .
. ومصداقا لما بين يدي من التوراة ولا حل لكم بعض الذى حرم
عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون ، . (٣ / ٥٠) .
ولكن رفع بولس جميع الالتزامات للعمل بالشرع والقوانين ، لذلك
كانت الضربة الاولى على السنة الابراهيمية ، يعنى الختان ، فالغى
ذلك . ثم أحلت الاطعمة التى كانت حراما . وقاموا بجميع ذلك
لادخال غير اليهود فى المسيحية . فانتشرت المسيحية فى الأمم
التي كانت تتعلق بالسرية اليونانية أو كانت متأثرة بها ، ولا فابتعاد
التثليث ، عن جادة العقل والصواب يظهر من القول المشهور
المنسوب الى القديس أغسطين ، ، « أو من به لأنه لا يصدق » .
ولنتدبر الآن فى القرآن ، فاننا نجد فيه العناية الخاصة بكل ما لا بد
منه لاستعمال العقل ، من العلم والتفكر . فلذلك نرى أن أول حكم
جاء به القرآن هو « اقرأ » .

وذكرت فضائل العلم والتعليم فى القرآن والحديث بكثرة تقتضى
أن نبحث فى هذا الموضوع ايضا . فمن الضرورى أن نقدم بعض
الامثلة لما جاء فى القرآن عن كرامة العلم ودرجاته العالية :
فمن أسماء الله تعالى « العليم » . ان الله تعالى زين الانسان
بقدرما بصفاته فاوصفه بهذه الصفة ايضا ، لذلك اول ما انزل من
القرآن فهو قوله تعالى : « اقرأ » .
وشهادة الملائكة على كونه الها لا اله الا هو ، فأشهد على
ذلك اولى العلم الذين يقومون بالقسط ، فقال : « شهد الله انه لا

اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط ، (١٨ / ٣) ،
 وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣٩ /
 ٩) ، وقال : « انما يخشى الله من عبادة العلماء » (٢٨ / ٣٥) ،
 وقال : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٢٩ /
 ٤٣) ، وقال : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين اوتوا العلم » ،
 (٤٩ / ٢٩) ، وقال : « والذين اوتوا العلم درجات » (١١ / ٥٨)
 ويتضح هذا الأمر بالمقارنة بين التعاليم النبوية والامة المحمدية
 وبين اليهود ، فقال الله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا
 منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٦٢ /
 ٢) . وقال عن اليهود « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها
 كمثل الحمار يحمل اسفارا » (٥ / ٦٢) .

فهذا هو نور العلم والفكر الذى نور القرآن به الانسانية كما
 يتضح من هذا المثال ، أى مثال الحمار الذى يحمل اسفارا . ان
 الذلة والمسكنة التى ضربت على اليهود ببغيتهم ثبتت من بعض
 الاسفار الاولى من العهد القديم . انهم كانوا تابعين فى جميع
 عباداتهم وقربانهم للاخبار الذين كانوا هم المسئولين فى تنفيذ
 الاحكام . ولا يترشح من التاريخ أن الاخبار حاولوا ان يحفظوا
 التوراة ، فكان هذا سببا لضياع التوراة ، وكلما عثر بعد القرون
 على بعض الاوراق من احدى اسفار التوراة ، عد هذا واقعا
 تاريخيا عظيما وكانت لها كبير الاهمية التاريخية - ولا يدعى احد أن
 الكتب الموجودة من العهد القديم هى التوراة الحقيقية التى نزلت على
 موسى عليه السلام . بل الفضل يرجع الى عزيز (EZRA) الذى جمعها

بعد الحصول عليها بالالهام . وعلى العكس من ذلك بدأت سلسلة غير متناهية للقراء والحفاظ الذين حفظوا متن القرآن وعلومه منذ بداية نزول القرآن . ولعدم التدخل من « الاحبار » نجا العلم الاسلامي من كونه تراثا محتكرا لطائفة واحدة . بل توجه الناس الى حصول العلم بعد أن رسخت اهميته ومكانته في اذهان المؤمنين . ولكن لا بد هنا من توضيح أمر ، وهو أن العلم الذي أشير اليه آنفا ، يشترط فيه الانصاف والعدل . فاذا كان هذا العلم بعد الحصول عليه سببا للترغيب في الهوى ، وجب القضاء على هذا الترغيب بالقول والعمل ، عملا بقوله تعالى : « اعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » (٦٧ / ٢) . لأنه ينبغي أن لا يكون الرجل سجين الهوى بعد حصوله على العلم - ان شأن العلم هو خشية الله ، ومن ليس كذلك فليس بعالم ، ولا يكون العالم مصداق الآية «انما يخشى الله من عباده العلماء» الا بعد تركه هوى النفس والترغيبات المادية .

ان اقوال النبي صلى الله عليه وسلم في تمجيد العلم سائرة على السنة الناس ، والترتيبات التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم لتعليم الناس بصورة اجتماعية كثيرة ، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترط على أسارى بدر الذي لم يستطيعوا اداء فدية انفسهم من المال وكانوا يعرفون الكتابة ، أن يعلموا اطفال المسلمين الكتابة فدية لانفسهم . ومنها أن اصحاب الصفة كانوا دائما عاكفين على حصول العلم ، ولذلك نستطيع أن نقول عن الصفة انها كانت اول جامعة في تاريخ الاسلام . ومنها تعيين القراء والحفاظ

فى العهد النبوى لتعليم القرآن فى مختلف القبائل . ومنها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ التوراة ، ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بعض اصحابه ان يتعلموا اللغات الاجنبية . وينبغى أن يكون هذا الامر باعثة فكريا لعلمائنا الذين يجتنبون من تعلم اللغات الغربية لانها لغات الكفار .

فهذا هو السعى العلمى الذى جعل سيدنا عليا رضى الله عنه باب العلم ، فالكلمات التى صدرت عن لسانه رضى الله عنه كانت فى منتهى سعة المعانى وعمق الفكر مايدعوا الى الاعجاب . وأما ابوبكر وعمر رضى الله عنهما فاصبحا ائمة الهدى وزعماء الأمة فى السياسة الطاهرة ، فنرى كثيرا من الامور التى اشتهرت فى هذه الايام من السياسة الدولية ، مثلا علاج الورطة الاقتصادية والمشاريع العمرانية وتنظيم رفاهية الجمهور وتعليمهم وتربيتهم ، كان مؤسسها كلها ومنشى هذه المؤسسات السياسية سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . واشتهر بعضهم فى علوم الحديث ، والبعض الآخر فى الفقه ، والبعض الآخر فى تفسير القرآن الكريم . فمن هؤلاء المشهورين عبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمرو وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وابوهريرة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين .

ان الاصرار على العلم يقتضى أن نذكر استعمال العقل والفكر والتدبر ايضا . فذكر فى القرآن سبب بيان الآيات البينات من جهة واحدة وهو أن يفهمها الناس ، فقيل : « انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (١٢ / ٢) ، « قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » (٥٧ / ١٧) . ومن جهة اخرى قيل انه لايفهم هذه الآيات الا اولوا

الالباب فقط ، فقيل : « كتاب انزلناه اليك مبارك ليديروا آياته
وليتذكر اولوا الالباب » (٢٩ / ٣٨) ، « كذلك نفصل الآيات لقوم
يعقلون » (٢٨ / ٣٠) . « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها
الا العالمون » (٤٣ / ٢٩) ، وذلك لان التفكير يمكن لاصحاب العقل
فقط . وهذه الآيات تدعوا الى التفكير والتدبر - « فاقصص القصص
لعلمهم يتفكرون » (١٧٦ / ٧) ، « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون »
(٢٤ / ١٠) . « وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »
(٢١ / ٥٩) . فعلى جماعة المؤمنين الذين فوض اليهم أمر الهداية
والتبليغ ان تتفقه في الدين ، فقيل : .. وما كان المؤمنون ان ينفروا كافة
فلولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا
رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » (١٢٢ / ٩) .

لماذا هذا التوكيد في القرآن الكريم على استعمال العقل وعلى
التفكير والتدبر خلافا للكتب الدينية القديمة ؟ ، انما يأتي القرآن بجوابه
لايبيان كل مسألة في ضوء البرهان فقط بل يذكر في اكثر الاحيان
مسائل لايسع للانسان الا الاعتراف باهميتها ، فالآيات القرآنية
المتعلقة بذات الباري عزوجل وخلق الكون يقتضى التفكير خاصة .
والدرس الثانى يتعلق بالتفكير والتدبر فى القرآن . « كذلك يبين الله
لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (٢ / ٢١٩ ، ٢٦٦) . وقال فى موضع
آخر « لعلكم تعقلون » . أو قال « ليديروا آياته وليتذكر اولوا
الالباب » . ومع ان هذه الرسالة كانت لجميع العالم والى الأبد ولكن
القرآن نزل باللغة العربية ليفهمه العرب أولا . ولأن منهم بعث الرسول
صلى الله عليه وسلم .

وقيل للمسلمين بالتوكيد والتحريض « افلا يتدبرون القرآن .. » .
فمن ذا الذى ينكر عن هذه الفائدة الجليلة القرآنية - « كذلك نقص
الآيات لقوم يعقلون .. » .

لم يكن قبلئذ مثل هذا التوكيد على استعمال العقل فى الكتب
السماوية القديمة فلماذا الآن ؟ / ان السبب بين . ان مدار الدين
انما يكون التدبر فى القرآن بعدئذ . لأنه اغلق باب نزول كتاب
سماوى وختم النبوة المرشدة الى الله تعالى الى الأبد . « ولكن رسول
الله وخاتم النبيين .. » .

وكانت أهم نتيجة لهذه التأكيد المتواصل على العلم والتدبر فى
القرآن أن صار العلم محفوظا عن الرهبانية والكهنوتية . اننا نرى
فى كل دين ونحلة جماعة من البطارقة أو الكهنة أو الربيين أو غير
ذلك . وتكون هى المسئولة عن أداء العبادات والمراسم الدينية .
وحتى يوجد فى العهد القديم أحكام خاصة فى هذا الصدد . وكان
هذا المنصب فى ولد هارون . وسمى الدين المسيحى بالمسيحية بعد
رفع عيسى عليه السلام الى السماء (وعلى العكس من ذلك تماما ان
القرآن الكريم هو الذى جاء الاسلام بهذا الاسم ، فقال : « ورضيت
لكم الاسلام ديناً .. » . ووضع أساس الكنيسة فى المسيحية ، وكذلك

حصلت لبندت فى الديانة الهندية بسبب هذا المنصب امتيازات خاصة
على الطبقات الاخرى . ولكن الاسلام دين ليس فيه مجال لأية كنيسة
أو كاهن . فاذا اجتمع بعض المصلين فى المسجد ، مثلا . يمكن لواحد
منهم أن يؤمهم ، ولا حاجة فى خطبة النكاح الى . شيخ .. أو رجل
من رجال الدين . ويمكن لكل رجل مسلم أن يؤم اخوانه فى صلاة

الجزاة .

ان الاسلام اعطى اصولا ومبادئ للقضاء على الصراع الطبقي فى ميادين الاقتصاد والسياسة ، وكذلك لم يسمح لظهور جماعة من الرهبان وطبقة رجال الدين ، لأنه الاسلام لم يكن فى حاجة اليه قط . فان هذه الطبقة من رجال الدين والكهنة والرييون ، تحتكر العلوم الدينية ، كما نرى فى الاديان الاخرى . حتى وتصيح حقوقهم متعينة للقيام بمراسم العبادة فى بعض الأديان . فالفساد والفتن التى توجد فى تلك الاديان يرجع سببها الى هذه الكتلة كما لا يخفى على أحد . ولكن القرآن ينفرد فى خصوصيته هذه بأن أمره الشامل للتدبير فيه يتضمن جميع المسلمين . ولم يكن هناك أى حرج فى ذلك مع وجود جماعة العلماء والصلحاء ، لأنه لا يحصل لهم أى حق اضافى بل ازداد عليهم عبأ الفرائض والواجبات . نعم يحصل حق الاجتهاد بوفور العلم ولكن ليس بميراث ينحصر فى جماعة خاصة ولا يتوقف حصول العلم على شهادة علمية من أية مدرسة خاصة أو التلمذ على أستاذ خاص .

ومن المبادئ الذهبية للاسلام ، قاعدته « لا اكراه فى الدين » ، ان تسامع المسلمين الدينى فى جميع الادوار امر بديهى اضطر العالم الى الاعتراف به دائما . حتى ولم يكن بد للمورخين الغير المسلمين من أن يثنوا عليه خيرا . فان اساس هذه القاعدة قائمة على مبدأ التعايش (Coexistence) ونرى على العكس من ذلك أمر اليهود، فطبقا للعهد القديم كان اليهود فى زمن موسى ويوشع عليهما السلام متورطين فى القتال مع غير اليهود ، كانوا

لايفتحون مدينة أو قرية الا وكانوا يقتلون جميع من فيها من النساء والاطفال والضعفاء والمرضى . فالسياسة الحاضرة لليهود ضد العرب فى اسرائيل فى هذا العصر التسامحى ان هو الا استمرار لتلك التقاليد اليهودية القديمة . وقد فاق هؤلاء على هتلر فى ظلمهم على العرب . ان القتل والتدمير والمظالم من هذا النوع كانت شائعة فى المجتمعات القديمة . ولكن الاسلام هو اول دين وضع أساس التسامع الدينى بتعليمه ,, لا اكراه فى الدين ,, . وانه ليثبت بقليل من التأمل ان هذا العصر العقلى فى حاجة كبيرة الى مبدأ التسامع الاسلامى . وبدأ الغرب ايضا يعترف بهذا المبدأ مذبداية هذا القرن

(للبحث صلة)

